



Phenomenological Understanding as a Methodological Alternative in the Social Sciences

Hicham El manjli

Université Abdelmalek Essaâdi, Maroc

Email: hicham.elmanjli@etu.uae.ac.ma

Abstract

This study examines phenomenological understanding as a methodological alternative to positivist explanation in the social sciences, adopting a comparative epistemological approach. Classical positivism—in its Durkheimian, Weberian, and Marxist variants—sought to subject social phenomena to the logic of natural causality and presumed neutrality. Against this backdrop, the study asks whether phenomenology can reconstruct the object of sociology on a different epistemological basis, one that recognizes the intentional and meaningful character of social action, thereby overcoming the limits of the positivist paradigm.

The analysis proceeds along two complementary lines. The first traces the philosophical shift from "explanation" (*Erklären*) to "understanding" (*Verstehen*), revisiting Husserl's foundational concepts of intentional consciousness and the epoché (phenomenological reduction) as methodological conditions for grasping social reality. The second examines Alfred Schutz's phenomenology of the social world, focusing on the lifeworld (*Lebenswelt*), intersubjectivity, and the typification of action and language as mechanisms through which actors construct shared social reality.

Three main conclusions emerge. First, the social phenomenon differs ontologically from the natural phenomenon, constituting a fabric of intentional meanings rather than a neutral external fact. Second, sociological knowledge is a second-order construct, interpreting interpretations already made by social actors themselves. Third, phenomenology offers deeper explanatory power than positivism by penetrating the semantic structure of social action rather than merely describing its observable manifestations.

The study recommends integrating phenomenological approaches into contemporary field research and employing qualitative tools—such as conversation analysis and linguistic analysis—to deepen understanding of everyday social interaction.

Keywords: phenomenological understanding; social sciences; lived experience; intersubjectivity; intentionality.



الفهم الفينومينولوجي كبديل منهجي في العلوم الاجتماعية

هشام المنجلي: جامعة عبد المالك السعدي، المغرب.

البريد الإلكتروني المؤسسي: hicham.elmanjli@etu.uae.ac.ma

ملخص:

تتناول هذه الدراسة، من منظور إبستمولوجي مسألة الفهم الفينومينولوجي بوصفه بديلاً منهجياً عن التفسير الوضعي في العلوم الاجتماعية. فبعد أن حاولت الوضعية الكلاسيكية - في صورها الدوركايمية والفبرية والماركسية - إخضاع الظاهرة الاجتماعية لمنطق السببية الطبيعية وحياديتها المزعومة، تطرح الدراسة الإشكالية التالية: هل يمكن للفينومينولوجيا، بما تقترحه من أدوات مفاهيمية بديلة، أن تُعيد بناء موضوع السوسيولوجيا على أساس إبستمولوجي مغاير، يقرّ بالطابع القصدي والدلالي للفعل الاجتماعي، ويتجاوز بذلك أزمة النموذج الوضعي وحدوده المعرفية؟

تُعالج هذه الإشكالية عبر مسارين تحليليين متكاملين: يُعنى الأول بتفكيك الأسس الفلسفية للانتقال من "التفسير" إلى "الفهم"، عبر استعادة المفاهيم الهوسرلية المؤسّسة - الوعي القصدي، والإيبوخيه أو الاختزال الظاهراتي - بوصفها شروطاً منهجية لبلوغ "الأشياء ذاتها". ويتوسّع المسار الثاني في فينومينولوجيا شوتز للعالم الاجتماعي، بما تنطوي عليه من مفاهيم إجرائية: عالم الحياة اليومية، والبينذاتية، والنمذجة النوعية للفعل واللغة، بوصفها آليات تفسر كيفية بناء الفاعلين الاجتماعيين لواقعهم المشترك.

تُفضي الدراسة إلى استنتاجات ثلاثة: أولاً، الفارق الأنطولوجي الجوهرى بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة الاجتماعية بوصف هذه الأخيرة نسيجاً من المعاني القصدية لا وقائع خارجية محايدة؛ ثانياً، الطابع "البنائي" من الدرجة الثانية "للمعرفة السوسيولوجية، كونها تأويلات علمياً لتأويلات الفاعلين أنفسهم لعالمهم؛ ثالثاً، القدرة التفسيرية الأعمق للفينومينولوجيا مقارنة بالوضعية، بما أنها تنفذ إلى البنية الدلالية للفعل الاجتماعي بدل الاكتفاء برصد مظاهره الخارجية القابلة للقياس. وتخلص الدراسة إلى التوصية بإدماج المقاربة الفينومينولوجية ضمن الممارسة الميدانية المعاصرة، وتوظيف أدوات كيفية - كتحليل المحادثة والتحليل اللغوي التداولي - لتعميق فهم بنية التفاعل الاجتماعي اليومي.

الكلمات المفتاحية: الفهم الفينومينولوجي؛ العلوم الاجتماعية؛ التجربة المعيشية؛ البينذاتية؛ القصدية.



مقدمة:

تكتسب دراسة الواقع الاجتماعي أهمية بالغة ومحورية في العلوم الاجتماعية، حيث تباينت وتصارعت المقاربات المنهجية التي حاولت تفسير وفهم هذا الواقع منذ ولادة علم الاجتماع كعلم مستقل بذاته يهدف لدراسة العلاقات والمؤسسات الاجتماعية. فبينما اتجه السوسيولوجيون الأوائل عموماً نحو العلوم التجريبية والطبيعية مستعيرين منها أدواتها ومسلماًها المادية والوضعية الصارمة، ظهرت في المقابل مراجعات إبستمولوجية ومقاربات فلسفية بديلة سعت إلى إحياء الذات والوعي الإنساني والخبرة المعيشة كمنطلقات أساسية وجوهرية لفهم الحياة الاجتماعية وتفسيرها. وفي هذا السياق المنهجي المعقد، نشأ الاتجاه الفينومينولوجي في ألمانيا بشكل خاص كاستجابة مباشرة لأزمة العلوم الأوروبية وقصور المناهج التجريبية الإمبريقية عن رصد جوهر الوجود الإنساني والعالم المعيش. وينطلق هذا المنظور من فرضية رئيسية مفادها أن الظاهرة الإنسانية والاجتماعية تختلف اختلافاً جوهرياً وبنوياً عن الظاهرة الطبيعية؛ فالأولى ظاهرة محملة بالقصود والقيم والمعاني الذاتية التي يشيدها الفاعلون طوال حياتهم اليومية، ومن ثم فإن ما يصلح لتفسير الطبيعة ومادتها الصامتة لا يصلح إطلاقاً لفهم ماهية الإنسان ووعيه الداخلي. ويرجع الفضل في تأسيس جذور هذا التصور إلى الفيلسوف الألماني الكبير إدموند هوسرل (1859-1938) Edmund Husserl الذي صاغ المنهج الفينومينولوجي كبديل أصيل للمناهج الوضعية والسيكولوجية، ثم تلميذه ألفرد شوتز (1899-1955) Alfred Schütz الذي عمل على نقل الفينومينولوجيا من حقل الفلسفة المتعالية إلى رحاب علم الاجتماع المعاصر. وتأسيساً على هذا التعارض المنهجي، تتبلور الإشكالية المركزية لهذا البحث في التساؤل الجوهري التالي: إلى أي حد يمكن للفهم الفينومينولوجي أن يشكل بديلاً منهجياً ناجعاً وقادراً على تجاوز قصور التفسير الوضعي الكلاسيكي، وتحقيق فهم أعمق وأشمل لبنية العالم الاجتماعي المعيش؟

ويتفرع عن هذا التساؤل المنهجي المركزي الأسئلة التفصيلية التالية:

كيف تطور المسار المنهجي والإبستمولوجي من التفسير الوضعي القائم على دراسة الأنساق الكبرى ومحاكاة العلوم الطبيعية إلى الفهم الفينومينولوجي المستند إلى ظواهر الوعي الإنساني وتجربة الإيبوخي؟ وكيف تتبلور فينومينولوجية العالم الاجتماعي عند ألفرد شوتز؟

تنطلق هذه الدراسة من فرضية مفادها أن الفهم الفينومينولوجي يمثل بديلاً منهجياً متكاملًا وناجعاً في

العلوم الاجتماعية، ينجح في تجاوز السطحية والصورية التي وسمت المناهج الوضعية؛ وذلك عبر تركيزه على الوعي الداخلي وإعادة الاعتبار للتجربة الذاتية والخبرة الحية للفاعلين، مستنداً إلى أدوات إجرائية كالرد الفينومينولوجي، والذاتية المشتركة (التداوت)، والنمذجة السلوكية واللغوية لكشف وتأويل المعاني العميقة الكامنة في عالم الحياة اليومية.

وفيما يخص الدراسات السابقة والجهود التي ناقشت إشكالية الفهم والبدايل المنهجية في العلوم الإنسانية، يمكن إجمالها في تيارين علميين بارزين:



أولاً: التيار الفينومينولوجي التأسيسي (كتاب «فينومينولوجية العالم الاجتماعي» لألفرد شوتز، 1932) الذي انصب على نقد علم الاجتماع الصوري عند ماكس فيبر، معتبراً أن تحليل فيبر للفعل الاجتماعي ومعناه الذاتي يظل تحليلاً سطحياً لم يوضح الكيفية الدقيقة التي يبني بها الفاعلون المعنى في وعيهم. وقدم شوتز بديلاً يقوم على أن الظواهر الاجتماعية تتشكل من المفاهيم العادية التي يصوغها الناس في تفاعلاتهم اليومية، وبذلك فإن المعرفة السوسيولوجية هي صياغات من درجة ثانية.

ثانياً: المراجعات النظرية المعاصرة لمناهج السوسيولوجيا (دراسة شحاته صيام، 2009، ودراسة طاهر حسو الزبيري): بحثت هذه الدراسات في طبيعة وتطور النظرية الاجتماعية الكلاسيكية والمعاصرة، ونظرت للبدائل المنهجية (كالفينومينولوجية، والاثنوميثودولوجية، والتفاعلية الرمزية) إما تطويراً للمقولات الأصولية أو تركيباً وتوليفاً لها في ضوء مستجدات الواقع الاجتماعي.

وتلتقي دراستنا مع هذه الدراسات في تبيين أهمية المراجعات المنهجية، لكنها تختلف وتتميز عنها بكونها مخصصة بشكل أعمق وتفصيلي للفهم الفينومينولوجي وتطبيقاته المفاهيمية عند شوتز بالتحديد مبرزة قيمتها المنهجية الموجهة بدلاً من الاستعراض العام لمدارس علم الاجتماع.

أولاً: من التفسير الوضعي إلى الفهم الفينومينولوجي

سعى علم الاجتماع منذ نشأته الأولى كعلم يهتم بدراسة وتفكيك بنية المجتمع إلى وضع قوانين هيكليّة كبرى تفسر الكل الاجتماعي، والبحث المستمر عن العلاقات السببية الواسعة للظواهر الاجتماعية. وقد نحا هذا الاتجاه السائد بعلم الاجتماع مساراً بعيداً عن الفلسفة ومناهجها التأملية، وأودعه في إطار العلوم الوضعية مستعيراً منها مناهجها الإمبريقية الكمية. وقد ظهر هذا التوجه بوضوح لدى إميل دوركايم في تركيزه على شيئية الحقيقة الاجتماعية وموضوعيتها، كما تجسد لدى كارل ماركس في محاولته اكتشاف القوانين المادية لتقدم المجتمعات. وبالمثل تجلّى هذا المنظور عند ماكس فيبر في بحثه الحثيث عن الكفاية السببية للفهم لتفسير مجرى الأفعال الاجتماعية ونتائجها تفسيراً سببياً دقيقاً. لقد اشترك هؤلاء الرواد في محاكاة نموذج العلوم الطبيعية، والتركيز على دراسة الأنساق الاجتماعية الكبرى والتحليل الكلي الواسع النطاق (الماكروسكوبي) الذي يجري على الجماعات والمؤسسات والنظم.

وفي مقابل هذا الاتجاه الوضعي الكلاسيكي، حاول نفر آخر من السوسيولوجيين فك الارتباط بهذا النموذج، وقدموا مراجعات نظرية ومنهجية عميقة للأفكار والآليات التي هيمنت على علم الاجتماع لوقت طويل، وهو ما اعتبر بمثابة انقلاب على معتقداته اليقينية. وقد أسفرت هذه المراجعات عن تبلور ما اصطلح عليه بالبدائل المنهجية كالفينومينولوجية، والاثنوميثودولوجية، والتفاعلية الرمزية، ونظرية التبادل الاجتماعي، ونظرية الفعل التواصلي (صيام، 2009، ص. 125). ورأى بعض النقاد في هذه المقاربات تطويراً للمقولات الأصولية في علم الاجتماع، أو تركيباً وتوليفاً لمقولات بعينها، أو تجاوزاً فرضته مستجدات الواقع الاجتماعي المعاصر (الزبيري، د.ت، ص. 92). وبغض النظر عن المسميات، فإن هذه البدائل



سعت لرصد الواقع الاجتماعي بأدوات تحليلية تتباين وتختلف جوهرياً عن الاتجاهات الكلاسيكية، طارحة تساؤلاً حول مدى نجاعتها في استيعاب وفهم المعاني الذاتية للأفعال الاجتماعية.

إن تشكيك بعض علماء الاجتماع المعاصرين في قدرة المناهج الوضعية والإمبريقية على فهم الواقع فهماً عميقاً وباطنياً، دفعهم إلى إحياء الذات والوعي من جديد في حقل العلوم الاجتماعية، والعودة إلى ينباع الفلسفة لاستلهاام المنهج الفينومينولوجي وتوظيفه سوسيولوجياً. وقد أدى هذا إلى إعادة النظر في كثير من المسلمات النظرية الشائعة، وتأكيد الفارق المنهجي الصارم بين الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية. ومن هنا يتضح أن الاتجاه الفينومينولوجي يرفض منذ البداية اعتبار العلوم الطبيعية نموذجاً يمكن أو ينبغي للعلوم الاجتماعية محاكاته؛ نظراً لأن السوسيولوجيا الوضعية تقبل مسلمات العلم الطبيعي دون إخضاعها لنقد ابستمولوجي شامل يقف على مدى ملاءمتها لفهم واقع الإنسان.

وتختلف الظواهر الطبيعية عن الظواهر الاجتماعية اختلافاً بنيوياً وجوهرياً؛ فالأولى ظواهر صامته لا تعبر عن بناء خاص من المعاني الذاتية، مما يتيح للباحث الطبيعي حرية الملاحظة وتفسير الظاهرة تفسيراً خارجياً مستقلاً عن وعي مادتها. أما في العلوم الاجتماعية، فإن الباحث يدرس عالماً يتشكل أساساً من معان ورموز تمثل بالنسبة إليه وسيلته المثلى لفهم الواقع المعيش. ومعنى ذلك أن الظواهر الاجتماعية تخضع بالفعل لطائفة من المعاني الذاتية والقصود التي يتعين على السوسيولوجي اكتشافها وتأويلها. فضلاً عن ذلك، فإن الظواهر الاجتماعية تكتسب دلالات خاصة وشخصية بالنسبة للأفراد الذين يعيشونها وينتجونها في إطار سياق اجتماعي وثقافي معين (الزيباري، د.ت، ص.341).

ومن هنا يتضح التباين الصريح بين دور عالم الاجتماع في فهم الواقع الاجتماعي ودور العالم الطبيعي في دراسة المادة الجامدة؛ فهذا الأخير يدرس ظواهر جامدة لا تتخذ بناءً معرفياً مسبقاً ولا تعرف القصدية أو الإرادة. وعلى الرغم من أن العالم الطبيعي يدرس ظواهر طبيعية توجد جغرافياً في إطار بيئة اجتماعية، إلا أن علاقته بها تظل علاقة خارجية باردة وميكانيكية، بخلاف علاقة السوسيولوجي بالظاهرة الإنسانية. لذا، فإن المنهج الظاهراتي يتعارض مع التوجه الوضعي الذي يخضع لنموذج العلم الطبيعي؛ حيث يؤكد الفينومينولوجيون صعوبة وجدوى الفصل بين العالم الاجتماعي وأساليب تفسيره وفهمه، بينما يزعم الوضعيون إمكانية تحقيق هذا الفصل من خلال اتخاذ الباحث موقف الحياد الملاحظ. (Isambert, 1983, p. 116).

وعلى ضوء هذه المقارنة الابستمولوجية، ينظر الفينومينولوجيون الاجتماعيون للواقع الاجتماعي بوصفه نتاجاً ديناميكياً للنشاط الإنساني بما يتضمنه من تأويلات ومقاصد ذاتية متبادلة. وفي هذا الإطار يأتي نقد إدموند هوسرل الصارم لعلم الاجتماع الكلاسيكي بسبب محاكاته العمياء للعلوم الطبيعية، معتبراً أن علماء الاجتماع افتقدوا بذلك القدرة الفائقة على الإحساس بظواهر الوعي الإنساني وتجلياته. وقد أكد هوسرل أنه يستطيع علماء الاجتماع إنقاذ علمهم من السطحية والصورية إذا ما حاولوا العودة بجدية إلى دراسة ظواهر الوعي باستخدام الفهم الفينومينولوجي (Melançon, 2011, p. 9)، وهو جهد منظم لوصف الظواهر كما تتبدى لوعينا، مما يجعل الوعي ذاته وسيلة وهدفاً في الممارسة الفينومينولوجية. ولأجل هذه الأسباب المنهجية، ناقض السوسيولوجيون الظاهراتيون المنهج الوضعي الذي انغمس في رصد الحقائق



الخارجية الباردة، مقدماً دراسات صورية هندسية لا تنبض بالحياة ولا تعكس العالم الاجتماعي في تفاصيله الدقيقة المعيشة. ومعلوم أن المنهج الفينومينولوجي لا يكتفي برصد الظاهرة من الخارج أو التوقف عند مستواها السطحي ولا يستند للرؤية العينية البسيطة، بل يتعدى ذلك للنفاذ لمستوى الوعي الداخلي، فاعلاً المعرفة كعملية حدسية داخلية تنبثق وتكمن في صميم الحياة الاجتماعية ذاتها. وهنا تكمن إسهامة ألفرد شوتز الذي ذهب إلى أن الظواهر الاجتماعية تتكون من المفاهيم العادية التي يصوغها الأفراد العاديون أثناء تفاعلهم وعلاقاتهم اليومية؛ فالحياة اليومية تحمل صياغاتها وتصوراتها الخاصة، وما على الباحث سوى إعادة اكتشاف هذه الصياغات ووصفها بطريقة علمية منظمة (Schutz, 1970, p. 78).

وجدير بالذكر أن الفينومينولوجيا تتجه بؤرتها أساساً صوب عمل الوعي الإنساني، ومن مسلماتها المحورية أن العالم الذي نعيش فيه هو عالم مصنوع ومتشكل في وعينا وعقولنا. ولا يعني هذا نكران وجود واقع مادي موضوعي، بل التأكيد على أن هذا العالم الخارجي لا يكتسب معنى ودلالة إلا من خلال وعينا به وتأويلنا له. لذا، يتعين على السوسيولوجي فهم الكيفية التي يصنع بها الناس عالمهم ليكون ذا معنى وقيمة، وهو ما يتحقق بالتخلي عن المعرفة المألوفة أو المعتادة وتتبع أصول المعرفة، وهي العملية التي يطلق عليها هوسرل اسم الإيبوخي *epochè* أو الاختزال الظاهراتي (Melançon, 2011, p. 14). ويعني ذلك تعليق الأحكام والتفسيرات المسبقة والكف عنها للبحث عن الأصول الخالصة لتشكل المعنى الاجتماعي.

وقد أكد هوسرل أن الأشياء في ذاتها هي بالضرورة ذات معان، وبالتالي فإن معرفتها تستوجب فهم معانيها الذاتية ووصف الوقائع كما تظهر للوعي دون وضع أي فروض مسبقة، مقتصرًا على الدراسة الوصفية البحتة للظاهرة كما توجد في وعينا الداخلي (صيام، 2009، ص. 132). وقد نجم عن تحديد هوسرل هذا صياغة جديدة كلياً لموضوع علم الاجتماع ليرتكز بالدرجة الأولى على عالم الحياة اليومية بوصفه عالماً ذاتياً ينبثق عن مقاصد الأفراد وتفسيراتهم. وتغدو وظيفة علم الاجتماع وفق هذا الطرح هي وصف العمليات

المنهجية التي يتم بها تشييد الواقع الاجتماعي عبر الإجراءات التأويلية والأساليب الذاتية كالمحادثات وتحليل لغة التفاعل اليومية. وفي هذا الصدد يؤكد شوتز أن القضية الأساسية للعلوم الاجتماعية تكمن في تطوير منهج شامل لمعالجة المعاني الذاتية للأفعال، بما يضمن بقاء الأنساق الفكرية السوسيولوجية منسقة مع هدفها الأعلى وهو فهم الأنساق الشائعة بين الناس العاديين طوال تفاصيل حياتهم اليومية لتحقيق فهم أعمق للواقع المعيش. (Schutz, 1970, p. 83)

ثانياً: فينومينولوجيا العالم الاجتماعي عند ألفرد شوتز

إذا كان إدموند هوسرل قد أرسى المعالم الفلسفية الأولى للفينومينولوجيا كمدخل فلسفي متعال لدراسة الخبرات والوعي الخالص، فإن ألفرد شوتز نجح في توظيف هذه الإرث الفلسفي لتحرير السوسيولوجيا من برائن المنهج الوضعي، مديلاً الفهم الفينومينولوجي كبديل منهجي رصين وعملي لرصد الوقائع الاجتماعية ووصف بنيتها العميقة. وقد أجمل شوتز



أفكاره وإسهاماته في مؤلفه العمدة الشهير « فينومينولوجية العالم الاجتماعي » Phenomenology of the Social World، محلاً فيه الكيفية الدقيقة التي يبني بها الفاعلون

الاجتماعيون عالمهم، والسبيل الكفيلة بفهمه وتأويل معانيه. واستهل شوتز مشروعه بنقد علم الاجتماع الصوري عند ماكس فيبر، متحفظاً على تحليله للفعل الاجتماعي؛ فرغم إشادة شوتز بفيبر لوضعه الإصبع على مفهوم المعنى الذاتي للفعل، إلا أنه اعتبر التحليل الفيبري (نسبة إلى ماكس فيبر) سطحياً ولم يوضح بالقدر الكافي الكيفية التي يتشكل بها المعنى داخل مجرى وعي الفاعل، مما يجعل الفهم الفيبري بحاجة لدراسة وتعميق فينومينولوجي. (Isambert, 1983, p. 120)

وينطلق شوتز من مسلمة ابستمولوجية مفادها أن الظواهر الاجتماعية تتشكل وتتركب بالأساس من المفاهيم العادية Common- sense concepts التي يصيغها الأفراد العاديون عن عالمهم وعن بعضهم البعض طوال مجرى حياتهم اليومية. وعندما يبادر الباحث السوسيولوجي بصياغة معرفته ونظرياته، فإنه لا ينطلق من نقطة الصفر أو مفاهيم علمية مجردة، بل يقيمها على ضوء وبناء تلك الصياغات الفردية الأولية التي يملكها الأفراد بالفعل. ومن ثم، فإن المعارف التي يقدمها علماء الاجتماع ليست سوى صياغات من درجة ثانية؛ أي أنها ترجمة وتأويل منهجي منظم لمعارف وصياغات من الدرجة الأولى صاغها الفاعلون على مسرح الحياة الاجتماعية أثناء ممارستهم اليومية العادية. وفي هذا المضمار المنهجي، يؤكد السوسيولوجي ثيري بلين Thierry Blin أن مقولات التفكير والتحليل التي يعتمدها العالم الاجتماعي ترتبط برباط وثيق بمقولات التفكير الشائعة بين الناس الذين يعيشون حياتهم العادية وقيمون علاقات تفاعلية فيما بينهم. وبالتالي فإن المفاهيم التي يستخدمها السوسيولوجي هي صياغات ومقولات من الدرجة الثانية لأنها تستند وتعتمد بالضرورة على مقولات أولى صاغها الناس العاديون في تفاصيل حياتهم (Blin, 2010, p. 55). ولفهم هذه المعارف واكتشاف كنهها الذاتي، يتحتم العودة للواقع الاجتماعي نفسه لوصفه وتحليله فينومينولوجياً. ويستخدم شوتز للإشارة لهذا المجال مصطلحات دالة مثل العالم الحي وعالم الحياة اليومية بوصفه المجال الاجتماعي الخصب الذي يمكن دراسته وتأويله بواسطة الفهم الفينومينولوجي (Schutz, 1970, p. 94).

ولا يتمثل هذا العالم الاجتماعي المعيش في مكان جغرافي محدد أو قالب عقلي مجرد في أذهان الأفراد، بل يتأسس على طابع ذاتي متبادل يقبل بمقتضاه كل فرد وجود الآخرين معه ويشاركهم الفهم والبناء. ويتغير هذا الواقع الاجتماعي باستمرار تبعاً لأفعال الأفراد وتأويلاتهم، مثلما تخضع هذه الأفعال بدورها لتأثير الواقع الاجتماعي وبنيته القائمة، مما يخلق علاقة جدلية تفاعلية مستمرة بين الفعل الذاتي والواقع الاجتماعي. ولأجل تحليل هذا العالم المعيش تحليلاً رصيناً، يؤكد شوتز ضرورة استخدام تقنية الرد الفينومينولوجي la réduction phénoménologique المستعارة من هوسرل، لتتقن الخبرات والمواقف وتصفيها من الأحكام المسبقة لبلوغ كنه المعنى الخالص.

ويسعى شوتز من خلال تفكيك عالم الحياة اليومية إلى دراسة التجارب والأفعال الاجتماعية العادية التي تصنع نسيج العلاقات الإنسانية؛ إذ يعتبر المعرفة الإنسانية والثقافية ما هي إلا حصيلة وتراكم مستمر لما يحدث في الحياة اليومية من تفاعلات وخبرات. وتعد اللغة الأداة المحورية لنقل هذه الخبرات والمعارف التراكمية عبر الأجيال المتعاقبة، طالما تلقيناها



نحن بدورنا من تجارب الأجيال السابقة. وقد دفع هذا التحليل شوتز إلى دراسة علاقات المعاصرة وعوالم السابقين واللاحقين للنفاذ لباطن وجوهر العالم الاجتماعي والكشف عن نسيجه الذاتي وعلاقات الفاعلين ومشاعرهم المتبادلة. ولولا هذا البديل الفينومينولوجي لظل السوسيولوجي حبيس القوالب الصورية الخارجية للظواهر دون بلوغ باطنها وجوهرها المعيش. ولأجل سبر أغوار هذا العالم الاجتماعي، توقف شوتز عند مفهومين نواتيين إجرائيين: عالم البينذاتي ومفهوم النمذجة. ويعد مفهوم البينذاتية (أو الذاتية المشتركة/التداوت) من أهم المفاهيم النواتية في السوسيولوجيا الظاهرية، وتكمن خلاصته في محاولة الإجابة المنهجية عن تساؤلات تواصلية ومعرفية عميقة: كيف نعرف مقاصد وأفكار الآخرين؟ كيف نعرف أنفسنا؟ كيف يحصل الفهم المشترك والتكامل والتفاهم بين المتفاعلين؟ وكيف يتصلون ببعضهم البعض؟ وتعني البينذاتية أنه على الرغم من أن عالم الحياة هو عالم ذاتي خاص بكل فاعل وتجربته الفريدة، إلا أن هناك قواسم وعوالم تواصلية مشتركة تمكن الذوات المختلفة من التعايش والتداخل معاً في عالم اجتماعي موحد. وفي هذا الفضاء التداوتي المشترك، يتم تبادل الخبرات والتجارب والمشاعر، مما يسفر عن تكون صورة ذهنية ذاتية متبادلة عن سلوك كل فاعل تجاه الآخر. وبفضل هذا التفاعل، يستطيع الفاعل بناء نموذج ذاتي فردي اجتماعي يختزل ويقولب سلوك الآخرين وأنماط تفكيرهم بصفة عامة وشاملة تغطي مجمل صفاتهم الفكرية والسلوكية الظاهرة والباطنة. وتلعب اللغة في هذا السياق دوراً قيادياً ومحورياً في عملية النمذجة والتنميط؛ حيث تمثل الخزان والمستودع الرئيسي للأنماط والرموز الجاهزة التي نستخدمها يومياً لإضفاء معنى متسق على مواقف العالم الاجتماعي وتسهيل التواصل والتفاهم المتبادل (Schutz, 1970, p. 105).

وجدير بالذكر أن الخبرات الذاتية التي يكتسبها الفاعلون خلال تداوتهم لا تتراكم عشوائياً، بل يصنفونها وينظمونها في نماذج Typologies مألوفة، يمثل كل نموذج منها صنفاً متآلفاً من الخبرات السلوكية المتشابهة. ومن خلال هذه النماذج المقولبة، يتم تكييف السلوك الفردي وتوقع أفعال الآخرين وتشديد معنى متماسك للعالم الاجتماعي. وفي ختام هذا المحور، نلاحظ تمايزاً إبستمولوجياً حاسماً بين الفينومينولوجيا الفلسفية (عند هوسرل) والمنهج السوسيولوجي الظاهراتي (عند شوتز)؛ فبينما يركز الأول على التأمل النظري المتعالي لما يجري في الوعي الداخلي الخالص، يتجه الثاني للبحث المنهجي عما يجري في العالم الاجتماعي الفعلي بوصفه عالم الذوات المتفاعلة التي تعيش تجاربها اليومية، مستكشفاً الكيفية التي يدرك بها الأفراد وعي ومقاصد الآخرين أثناء عيشهم في مجريات وعيهم الخاص.

خلاصة

نخلص في ختام هذه الدراسة إلى التأكيد على أن هذا الاتجاه السوسيولوجي يضع مركز ثقله في استكشاف المعاني العميقة والخبرات المشتركة بين الأفراد في المجتمع، بوصفها اللبنة النواتية لتأسيس الحياة الاجتماعية وصيانتها. ولأجل تفكيك هذه الظواهر وفهم كنهها الذاتي، عملنا على توظيف الأدوات المنهجية المستعارة أساساً من الميدان الفلسفي، وتحديداً من الفينومينولوجيا الهوسرلية، والتي نجح ألفرد شوتز بعبقريته في نقلها وتبيئتها داخل حقل العلوم الاجتماعية؛ حيث تمحور



جوهر اهتماماته السوسيولوجية حول رصد ديناميات تأسيس المعنى وآليات الفهم التي تتخلق في فضاء «عالم الحياة اليومية» للأفراد

ولقد أتاح لنا هذا التتبع المفهومي رصد نقطة الاختلاف الإستيمولوجية الجوهرية والفاصلة ما بين الفينومينولوجيا في لبوسها الفلسفي التأملي وفي تمظهرها السوسيولوجي؛ إذ ينكفئ الاتجاه الفلسفي الأول عند هوسرل على التفلسف عما يعتمل في تجايف الوعي الخالص واستكشاف خبراته الذاتية الخالصة، في حين يتجه السؤال المركزي للبديل السوسيولوجي عند شوتز نحو سبر أغوار العالم الاجتماعي الفعلي باعتباره فضاءً حيويًا للذوات المتفاعلة، والبحث المنهجي عن الطريقة التي يدرك بها الأفراد وعي الآخرين ويتعايشون من خلالها وهم يتحركون في الآن ذاته ضمن مجريات وعيهم الخاص المعيش

المصادر والمراجع المعتمدة

أولاً: المراجع باللغة العربية

1. الزبياري، طاهر حسو). د. ت. (النظرية السوسيولوجية / المعاصرة (ط. 1). دار البيروني للنشر والتوزيع.
2. صيام، شحاته. (2009). النظرية الاجتماعية من المرحلة الكلاسيكية إلى ما بعد الحداثة (ط. 1). مصر العربية للنشر والتوزيع.

ثانياً: المراجع باللغات الأجنبية

1. **Blin, T.** (2007). *Phénoménologie de l'action sociale : À partir d'Alfred Schütz* (P. Watier, Préf.). L'Harmattan.
2. **Isambert, F.-A.** (1983). Alfred Schütz entre Weber et Husserl. *Revue française de sociologie*, 24(1), 119-125.
3. **Melançon, J.** (2009). La compréhension phénoménologique du monde social. *La Vie des Idées*. <https://laviedesidees.fr/La-comprehension-phenomenologique>
4. **Schutz, A.** (1970). *On phenomenology and social relations : Selected writings* (H. R. Wagner, Ed.). The University of Chicago Press.